مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 1027 - 1044 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نظرية الوساطة عند إدريس نقوري، تحليل أنثروبولوجي لقصة يوسف عليه السلام

Mediation theory for Idris Naquri
Anthropological analysis of the story of the Prophet Joseph

* د. يوسف رحيم

Rahim Youssouf

جامعة –عبد الرحمن ميرة – بجاية / الجزائر

University - Abdel Rahman Mira - Bejaia / Algeria

youcef_rah@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2020/11/06	تاريخ القبول:2021/04/06	تاريخ النشر:2021/06/02

ملخص البحث

تهدف الدراسة إلى معرفة الأسس والآليات التي يقوم عليها التحليل الأنثروبولوجي من خلال نظرية الوساطة، ومعرفة حدودها وكيفية تطبيقها على النصوص، ومدى فاعليتها في الكشف عن واقع الإنسان، وهذا في إطار الدراسة التي قام بها إدريس نقوري الذي وظف نظرية الوساطة في تحليل قصة يوسف.

نتج عن تطبيق النظرية قيام الوساطة على ثلاث عناصر: وهي الذات والموضوع والوسيط، وما يجمع بينها هو وجود الرغبة والإرادة، وقد تنوعت في قصة يوسف بين إرادة الله وإرادة الأبوين، ضمن وساطة إيجابية وأخرى سلبية.

كما نتج عن الدراسة معرفة طريقة معاملات الإنسان، قصة القميص، الدم والسكين، وكلها وقائع تكشف عن حياة الانسان في زمن النبي يوسف عليه السلام.

الكلمات المفتاحية: نظرية الوساطة؛ أنثروبولوجيا؛ إدريس نقوري؛ يوسف عليه السلام؛ قرآن.

Abstract :

The study aims to know the foundations and mechanisms on which anthropological analysis is based through the theory of mediation, and to know the limits of the theory and how to apply it to texts, and the extent of its effectiveness in revealing human reality, and this in the context of the study conducted by Idris Naquri, who used the theory of mediation to analyze the story of the prophet Joseph.

The application of the theory resulted in the settlement of mediation on three elements: the subject, the object, and the mediator, and what unites them is the presence of desire and will, and in Joseph's history it varied between the

* **يوسف رحيم**، youcef_rah@yahoo.fr

will of God and the will of the parents, in a positive and negative mediation. The study also resulted in knowledge of the manner of human dealings, the story of the shirt, blood and knife, all of which are facts that reveal the life of man in the time of Prophet Yusuf, peace be upon him.
key words: Theory of mediation Anthropology;; Idris Naquri; Prophet Yusuf; Quran

مقدّمة:

تندرج نظرية الوساطة ضمن مجال البحث الأنثروبولوجي وهو علم يعنى بالإنسان من حيث تطوراته وطرق معيشته، وكذا العلاقات التي يعقدها مع باقي البشر، وتأخذ الوساطة على عاتقها جانبا من هاته العلاقات، فهي نظرية تهتم الإنسان كموضوع الدراسة، وفي نفس الوقت يمثل دور الذات الفاعلة ويلعب دور الوسيط في تحقيق موضوع رغبته.

تتبع إدريس نقوري مفهوم الوساطة في الفكر والفن وربطها بموضوع الرغبة والإرادة، وذلك بتطبيق معايير النظرية على قصة يوسف عليه السلام المذكورة أحداثها في القرآن الكريم، وغايته في ذلك معرفة طبيعة الإنسان وعلاقاته، وتعد الدراسات الحداثية التي سعى أصحابها إلى استثمار مفاهيم ومناهج الدرس الغربي المعاصر في فهم النص القرآني، وهي دراسة متميزة إذ طبق آليات المنهج الأنثروبولوجي على القرآن الكريم .

من هاته المتغيرات نطرح التساؤل الآتي:

إلى أي مدى يسهم التحليل الانثروبولوجي في فهم القصص القرآني؟ .

كيف اعتمد نقوري مفاهيم الوساطة في الكشف عن مراحل تطور حياة النبي يوسف عليه السلام؟.

يسهم التحليل الانثروبولوجي في معرفة طرق السرد في القصص القرآني، إذ تمثل قصة يوسف عليه السلام النموذج الأسمى في التجارب الانسانية، وما عبرت عنه من رغبات سلبية وإيجابية، إذ ذكرت وقائعها في سورة واحدة، وأن الإرادة الإلهية تحققت منذ البداية بالرؤيا إلى لقاء يوسف عليه السلام بأبويه وإخوته .

تهدف الدراسة إلى معرفة الأسس والآليات التي يقوم عليها التحليل الأنثروبولوجي من خلال نظرية الوساطة، ومعرفة حدودها وكيفية تطبيقها على النصوص، ومدى فاعليتها في الكشف عن مختلف علاقات الإنسان.

أولا: **ماهية الأنثروبولوجيا**

يذكر الباحث الفرنسي جان بواريه أن كلمة الأنثروبولوجيا ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعني التاريخ الطبيعي للإنسان...وربما كان عالم الطبيعة الألماني جوهان بلومينباخ أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي...ويذكر بواريه أيضا أن الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت أشاع استخدام هذا المصطلح خاصة بعد صدور كتابه "الأنثروبولوجيا من منظور علمي" [1].

ثم أصبح مصطلح الأنثروبولوجيا "عند الانجليز يطلق على علم الإنسان وأعماله مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية، أما في أوروبا فيعني دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية وفي أمريكا الإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا لوصف الإثنولوجيا الثقافية، وتعني الأنثروبولوجيا عندهم علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة"[2].

وبين هذه المفاهيم نقصد بالأنثروبولوجيا "بعلم الإناسة" العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة ومن جهة أخرى أنه الوحيد من الأنواع كلها الذي يصنع الثقافة ويبدعها"[3]، كما أنه العلم الذي يدرس الإنسان، من حيث هو كائن عضوي يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة ويسلك سلوكا محددا، أو هو العلم الذي يدرس الحياة البدائية والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني"[4].

وكتعريف جامع نذكر ما وضعه شكر سليم في قاموس الأنثروبولوجيا الذي صدر عام 1981 يقول فيه" الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا"[5].

أما مصطلحي الإثنوغرافيا والإثنولوجيا فنجد التميز التالي: تعد الإثنولوجيا فرعا من فروع الأنثروبولوجيا يختص بالبحث والدراسة عن نشأة السلالات البشرية والأصول الأولى للإنسان وترجع لفظة إثنولوجيا إلى الأصل اليوناني أثنوس ethnos وتعني دراسة الشعوب ولذلك تدرس الإثنولوجيا خصائص الشعوب اللغوية والثقافة السلالية"[6]، "دراسة تحليلية مقارنة عن طريق استخدام مناهج الأنثروبولوجيا"[7] قصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطورها وأوجه الاختلاف فيما بينها وتحليل انتشارها تحليلا تاريخيا"[8].

أما الإثنوغرافيا فموضوعها "دراسة منتجات الإنسان مادية كانت أم غير مادية والعوامل التي تحدد عمليات استعارتها وانتشارها بين الشعوب"[9]، ونقصد بهذا الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات لدى جماعة معينة خلال فترة زمنية محددة"[10].

والفرق بينهما أن الإثنوغرافيا تعمد إلى وصف ثقافة ما في مجتمع معين الإثنولوجيا تجمع الوصف والمقارنة بدراسة الظواهر الثقافية دراسة تاريخية مقارنة زمنية تاريخية، فعلم الإثنولوجيا أوسع من الإثنوغرافيا إنه يدرس الشعوب من كل نواحيها في لغاتها الشفهية وعاداتها وتقاليدها وأديانها وهو يتتبع الدراسة الميدانية على أرض الواقع، ولا يكتفي بالوثائق المكتوبة بينما يكتفي علم الإثنوغرافيا بالدراسة التحليلية الوصفية لذا كانت ترجمته إلى اللغة العربية بعلم خصائص الشعوب"[11].

1. أقسام الأنثروبولوجيا:

كتبت الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية **مارجريت ميد** (1901-1979) تقول "نحن نصف الخصائص الإنسانية الأنثروبولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان، وفي سائر الأماكن ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وتعنى أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته، وبصفة عامة نحن الأنثروبولوجيون نسعى لربط وتفسير نتائج دراستنا في إطار نظريات التطور أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر"[12].

ومن هذا القول يمكن أن نقسم علم الأنثروبولوجيا إلى قسمين أساسيين: يبحث الأول في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعية، في حين يبحث الثاني في أعمال الإنسان ويعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية / الحضارية.

لقد انحسرت الفلسفة إلى حد ما في النصف الثاني من القرن 19 م، أمام التفكير العلمي حيث تطورت العلوم الاجتماعية واستطاع العالم البريطاني ادوارد تايلور أن يرى في تنوع أساليب حياة الشعوب وتطورها ظاهرة جديرة بالدراسة وأن علم ا جديدا يجب أن ينشأ ويقوم بهذه المهمة وسمى تايلور هذه الظاهرة بالثقافة culture أو الحضارة civilisation"[13] والتي تندرج ضمن أقسام الأنثروبولوجيا، وتعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان، يدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ)

وهي العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته...فالأنثروبولوجيا الثقافية إذن تهدف إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحدد عناصرها"[14].

يعود الفضل في ظهور الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقل عن الأنثروبولوجيا العامة في النصف الثاني من القرن 19م إلى العالم الانجليزي **إدوارد تايلور**، والذي قدم تعريفا شاملا للثقافة عام 1871، في كتابه "الثقافة البدائية وقد مرت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل:

1-مرحلة البدائية من ظهور الأنثروبولوجيا إلى القرن 19 م.

2- مرحلة ثانية مابين 1900-1915 وتعد المرحلة التكوينية (معرفة تاريخ ثقافة الشعوب)

3- مرحلة ثالثة 1915-1930 فترة الازدهار وكثرة البحوث والمناقشات.

4- مرحلة رابعة 1930-1940 وهي الفترة التوسعية حيث تميزت باعتراف الجامعات الأمريكية والأوربية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص.

5- وهي الفترة المعاصرة من 1940- إلى يومنا هذا توسع نطاق الأنثروبولوجيا خارج أوربا وأمريكا"[15].

أما عن المصطلح فإن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة "الأنثروبولوجيا الثقافية" يصطلح عليه الفرنسيون بالإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا في بعض الأحيان، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع، أما الانجليز فقد اختاروا تسمية أخرى وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية... وتستخدم في ألمانيا مثلا للإشارة إلى الدراسة الطبيعية للإنسان، بينما تستخدم كلمة إثنولوجيا لتشير إلى علم الشعوب وإذا انتقلنا إلى الاتحاد السوفياتي ومعه معظم بلاد شرق أوربا نجد أن مصطلح الإثنوغرافيا يشيع استخدامه"[16].

ويكثر استعمال الإثنولوجيا لأنها تعتمد عمليتي التحليل والمقارنة فتكون عملية التحليل في دراسة ثقافة واحدة، بينما تكون عملية المقارنة في دراسة ثقافتين أو أكثر، وتدرس الإثنولوجيا الثقافات الحية المعاصرة والتي يمكن التعرف إليها بالعيش بين أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة (البائدة) بواسطة مخلفاتها الأثرية المكتوبة والوثائق المدونة، وتهتم إلى جانب ذلك بدراسة ظاهرة التغير الثقافي من خلال البحث في تاريخ الثقافات وتطورها"[17]ولاسيما قوانين الشعوب والعادات والنظم والقيم والتقاليد مثل النسب الأبوي أو الأمومي، سلطة الأب، الاختلاط وطرائق الزواج

المختلفة"[18]، كما تتناول اللغات واللهجات المحلية والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة وذلك ما يعرف بعلم اللغويات"[19].

وفي علاقة الأنثروبولوجيا بعلم اللغة فقد استفاد الأنثروبولوجيون من مناهج دراسة اللغة مثل المنهج البنيوي الذي استثمره **ليفي شتراوس**، حيث انطلق من القوانين التي توصل إليها العالمان فرديناند دي سوسير ورومان جاكبسون في مجال اللغة باعتبارها نموذجا نظريا".[20]

ولذا هو يطالب الأنثروبولوجيين بأن يحذو حذو اللغويين البنيويين، وذلك من خلال الانتقال من البحث في وظيفة نسق المصطلحات إلى البحث في كيفية عمل هذا النسق، ولهذا نجده يقول " المشكلة أننا كنا في حالة اللغة إذ كنا نعرف وظيفة النسق ذاته لم نكن نعرفه"[21].

وقد ترتب على هذا الانتشار المتعدد الأوجه للبنيوية في دوائر وأقسام الأنثروبولوجيا أن بدأ الأنثروبولوجيون إعادة النظر في مقولاتهم "ودفعت بهم البنيوية كذلك إلى مشاركة زملائهم في علوم إنسانية أخرى كالنقد والأدب، الفلسفة ونظريات التحليل النفسي"[22]، وهذا ما يصرح به ليفي شتراوس "من أنه تأثر بمصادر غير أنثروبولوجية، وعلى نظرياته وأفكاره في مجال الأنثروبولوجيا فمن بين تلك المصادر مثلا: الأعمال الروائية لبلزاك وبروست والأعمال الشعرية لشعراء مثل بودلير ومالارميه وأعمال رسامين مثل ماكس أرنست"[23] كما أنه يشارك روسو في النظر إلى الإنسان والطبيعة على أنهما مكملان وليس نقيضان لبعض"[24].

2. الأنثروبولوجيا عند كلود ليفي شتراوس:

إن المتتبع لتطور مشروع ليفي شتراوس البنيوي يمكنه ملاحظة أن ليفي شتراوس قد وضع جميع أدواته المنهجية وفق تصوره البنيوي لإثبات أن وحدة العقل البشري وآليات عمله إنما هي واحدة في المجتمعات البدائية المعقدة، لذا فإنه بمعالجته لعدد من الموضوعات في العقل الوحشي: الطوطمية والتنظيم القبلي، قوانين الزواج، السحر، الأسطورة، نظم المحرمات والطقوس"وإنما يريد إثبات سيادة قوانين واحدة تتحكم في اللاشعور، وإن هذه القوانين طالما أثبت العالم اللغوي دي سوسير وظيفتها على المستوى العقلي في مجال عمل اللغة إذا ما المانع أن تكون نفس القوانين هي الموجهة للسلوك الاجتماعي الثقافي"[25].

ومن هنا فان ليفي شتراوس يرى أن مهمة الأنثروبولوجية البنيوية تتمثل في ضرورة البحث في الكيفية التي تقوم بها البنية اللاشعورية للعقل بتنظيم الممارسات الاجتماعية الثقافية: الزواج،

الطقوس، الأساطير، اللغة وغيرها"[26]، ويرى أن جميع مبادئ الاختيار في الزواج إنما تتم وفق تحكم البنى العقلية اللاشعورية، حيث يشكل نسق الاتصال أحد أركانها الأساسية"[27]، إنه عملية عقلية مثل التصنيف الذي يقوم به العقل في مجال اللغة وهو ما يقوم به العقل أيضا في مجال تعامله مع عناصر الطبيعة والمجتمع.

يحاول شتراوس من خلال موضوع الزواج والقرابة باعتبارهما ممارسة اجتماعية، إثبات أن البنى العميقة أو المستترة على المستوى العقلي اللاشعوري تعتبر واحدة بين كل البشر، وهي بذلك تعتبر مسؤولة عن هذه الممارسات أو الفعل الاجتماعي"[28]، كما أنا تعتمد جميعها على قوانين عقلية وكونية الطابع، وهي تتحكم في موضوع القرابة والزواج مثلما تتحكم في اللغة"[29].

...إن القرابة كميدان للدراسة شكلت تاريخيا المفتاح الذي استطاعت الأنثروبولوجيا عبره فهم وتحليل المجتمعات غير الصناعية أو البدائية...إن القرابة في هذه المجتمعات تمثل النسق الذي يلعب الدور المهيمن وربما النسق الأهم الذي يتقاطع مع بقية الأنساق والنظم الاجتماعية الأخرى كالنسق السياسي، الديني والاقتصادي...الخ"[30]، وهو يعتبر القرابة نظام مصطلحات متداول بين الأفراد المنتمين إلى جماعة قرابية (نسق المصطلحات)، وباعتبارها علاقات، مواقف اجتماعية وسيكولوجية (نسق المواقف)"[31].

3. تطبيقات الأنثروبولوجيا على الأديان " أركون"

بالإضافة إلى أنثروبولوجيا شتراوس وما فيها من القرابة والزواج والأساطير واللغة، ركز محمد أركون على الجانب الروحي وهو الدين، فيما أسماه بمشروع الإسلاميات التطبيقية أو الأنثروبولوجية الدينية، والتي نقصد بها دراسة الأديان في المجتمعات البشرية من أجل المقارنة فيما بينها، واستخلاص القواسم المشتركة، وفهم آلية اشتغال الروح البشرية، فيما وراء كل الخصوصيات الضيقة المحصورة بشعب واحد أو دين واحد، فمادام الإنسان سجين دين واحد فإنه لم يفهم الظاهرة الدينية في أبعادها الأنثروبولوجية، والمقصود بالظاهرة الأنثروبولوجية السمة التي تميز الجنس البشري من غيره والتي نجدها بأشكال شتى في كل المجتمعات البشرية"[32].

يهاجم أركون الطريقة التقليدية لتعليم الأديان لأنها لم تعد مناسبة للعصر ولأنها ترسخ وعيا قروسطيا طائفيا يمرن المجتمع أو يجعل وعيه مستلبا والحل الذي يقترحه أركون هو التعليم الحديث لتاريخ الأديان وعلم اجتماع الأديان وأنثروبولوجية الدين"[33]، إذا لم نعتنق منهجيات

الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وتساؤلاتها وفضولها المعرفي فإنه من غير الممكن أن نقدم تعليما علمانيا لتاريخ الأديان"، [34] إنه يدعو إلى تدريس تاريخ الأديان من خلال علم الاجتماع الديني والأنثروبولوجية الدينية وتاريخ الأديان المقارن .

يقول أركون إذا قمنا بهذه التحليلات والاستعادة النقدية لمعجم شائع ومنتشر، استطعنا أن نفهم مدى ضرورة تبني الإشكالية الأنثروبولوجية أو المنظور الأنثروبولوجي وفائدتهما من أجل الدراسة الحديثة للأديان، وهذا ليس لانتصاف للأديان عن طريق الاعتراف بأهمية حدودها الأولية ووظائفها العديدة في المجتمع، وإنما يتيح لنا أيضا أن نكتشف إلى أي مدى تبدو فيه مجتمعاتنا المدعوة :حديثة، عقلانية وعلمية لا تزال خاضعة لآليات الأسطرة والأدلجة"[35].

نحاول بعد هذا العرض النظري لأصول المنهج الأنثروبولوجي ولاعتبارات عدة أطنبنا في الحديث عنه.

- أن هذا المنهج جديد على الساحة الدينية فتطبيقه على القرآن فتح مجال وزاوية أخرى لمعرفة عناصر الإعجاز القرآني وسورة يوسف خاصة.
- كما يرتكز هذا المنهج على الإنسان باعتباره موضوع الدراسة والهدف منها في آن واحد.

خص إدريس نقوري سورة يوسف بمبحث وضمنها كنموذج لنظرية الوساطة في القصص الديني، محاولا بذلك أن يحللها بالمنظور الأنثروبولوجي.

ثانيا: الوساطة وعلاقتها بالأنثروبولوجيا:

نحاول أن نكشف عن المستوى الذي تغطيه نظرية الوساطة بالنسبة لعلم الأنثروبولوجيا، وقد عرفنا أن موضوع هذا العلم هو الإنسان من كل النواحي الداخلية" فيزيولوجية ونفسية وخارجية في علاقته بالمجتمع وبالحضارة التي يعيشها ووسائلها وعاداتها وتقاليدها واللغة التي يستعملها ..الخ.

يقول الحنفاء إننا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر تكون درجته في الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات_ يماثلنا من حيث البشرية ويمايزنا من حيث الروحانية، فيتلقى الوحي بطرق الروحانية ويلقي إلى نوع الإنسان بطرق البشرية، وذلك مصداقا لقوله تعالى:" **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي** "[36].

ونجد الوساطة في شكل آخر عند توفيق الحكيم وهي تعني الاعتدال بعدم التطرف والغلو، حيث يرى أن الإسلام جزء من النظام الكوني قائم على التعادلية، والتي تتأسس على مقولة "عش

في الدنيا كأنك تعيش أبدا وعش للآخرة كأنك تموت غدا" وهذا يقتضي من الفلسفة أن تدرس الحياة الدنيا جيدا وتحاول أن تعرف ما تستطيع معرفته عن الآخرة"[37].

ينظر توفيق الحكيم بمفهوم التعادلية إلى الكون وإلى الإنسان النظرة نفسها، التي نظر بها فلاسفة اليونان، وهي نظرة تحاول جمع الأضداد في وحدة ..." هي نظرة هيراقليطس القائلة بأن حقيقة الكون أضداد تتعادل، وهي المبدأ المعروف "بالوسط الذهبي" الذي يتوسط المتطرفات فيكون هو الفضيلة والحكمة".[38]

ولم يكتف **زكي نجيب محمود** ببحث الوساطة التي تفيد عنده معنى الوسطية_ على مستوى العلاقة بين الشرق والغرب ولكنه عالجها كذلك في مستوى العلاقة بين الشرق والغرب، ولكنه عالجها كذلك في ضوء الإشكالية المعقدة: الأصالة والمعاصرة، فيقول " أنا أبحث عن طرائق السلوك التي يمكن نقلها عن الأسلاف العرب بحيث لا تتعارض مع طرائق السلوك التي استلزمها العلم المعاصر والمشكلات المعاصرة"[39].

واعتمد المفسرون معاني عديدة، انطلقوا منها في بحث الوساطة وهي:

- ما بين طرفي الشيء أو معظمه وأصله.
- أفضل الشيء وأحسنه
- الاعتدال والإنصاف
- الحسب والشرف."[40]

وتعرف الوساطة من وجهة نظر علم النفس والتحليل النفسي، أنها تقليد أو محاكاة لنموذج ما، يسعى إلى تحقيق غرض معين أي رغبة ملحة يطمح المقلد إلى إشباعها" وهي بذلك حركة النفس/ الذات، نحو الشيء الذي تشعر تجاهه بالحاجة أو الذي يكون نقطة جذب بالنسبة إليها"[41].

1. نظرية الوساطة عند إدريس نقوري

يقوم مفهوم الوساطة عند نقوري على ثلاثة عناصر وهي الذات والموضوع والوسيط، إنها بمعنى آخر: رغبة تلقائية أو مفروضة، إيحاء من وسيط خيالي أو واقعي، لأن الذات تقلد النماذج التي اختارتها بحرية أو فرض عليها اختيارها واقع الصراع الاجتماعي أو التناقض الداخلي الباطني"[42].

ترتبط ثلاثية الوساطة " الذات، الرغبة، الوسيط " بالإنسان، فاللغة وسيط، والعقل وسيط، والتقاليد وسيط وقيم الدين والأخلاق والتربية وسيط، ومبادئ التعامل في مختلف المجالات: السياسية والتجارية والصناعية... وسيط"[43] .. وهذه العناصر هي موضوع الأنثروبولوجيا، وبهذا تعد الوساطة نظرية إنسانية لأن الإنسان هو جوهرها وأساسها وعليه مدارها" .

يؤكد هذه الفكرة "ربي جيرار" فيرى أنه ليس هناك مستقبل اليوم مثل مسألة الإنسان، وترتبط الوساطة عنده بالمحاكاة أو التقليد وبالمنافسة وغيرها من مشاعر الحقد، الغيرة والحسد... بالرغبة ومفاهيم أنثروبولوجية وفلسفية كثيرة"[44].

2. الرغبة والإرادة أساس الوساطة:

تظهر الوساطة عبر مجموعة من المفاهيم المتصلة بها مثل الإرادة والرغبة والقدرة والقضاء...وتتدرج حسب المستويات الثلاثة الآتية:

المستوى الأول: يتمثل في الذات الإلهية بوصفها الذات الراغبة القادرة على تحقيق رغبتها وانجاز فعلها وتنفيذ معرفتها بواسطة الملائكة "جبريل عليه السلام" الذي وكل إليه أمر الاتصال بالأنبياء والرسل وتبليغ الوحي الإلهي.

المستوى الثاني: يبرز دور الأنبياء والرسل في إيصال الوحي: الإرادة أو الرغبة الإلهية إلى قوم بذاتهم أو إلى الناس كافة.

المستوى الثالث: هو الذي يتحتم فيه على المسلم أن يكون قدوة لأخيه المسلم في كل ما يمت إلى إصلاح شؤونه الدينية والدنيوية"[45].

تتشكل من هذه المستويات ثلاث مراحل هي: التنزيل عبر الوسيط جبريل عليه السلام، التوصيل عبر وساطة الرسول وأخيرا التحويل عبر وساطة الإنسان، تحقق هذه المراحل إرادة ورغبة إلهية، قد عرضت في صور كثيرة في القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، وأن قصة يوسف تعرض نموذجا رائعا ومعجزا يبين مراحل ظهور الرغبة" أو الإرادة" الإلهية وأطوار تنفيذها"[46].

يبدأ نقوري تحليل قصة يوسف من تلك الرؤيا التي يرى أنها عبارة عن رغبة وقبلها يقابل الآية " **الر**" بعبارة "أنا الله أرى" ويقول إذا صح هذا التأويل فمعناه أن السورة أو القصة، تبدأ برؤيا أو رؤية إلهية، أي برغبة... فالرؤيا إدراك حقيقة وتحقيق رغبة والرغبة هنا مثلثة: إلهية وأبوية وفردية" رغبة يوسف"[47].

ترتبط الوساطة بالرغبة فهما كالغاية والوسيلة، فكما أنه لا غاية بدون وسيلة، فكذلك لا رغبة بدون وساطة، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، والإنسان هو أساس الرغبة ومصدرها ففي أصفى معانيها وأعقد مظاهرها وأدق تقلباتها هي الإنسان، هي الذات البشرية"[48]... ثم إن أكبر رغبة يعاني الإنسان إزاءها ضعفا كبيرا هي الرغبة في البقاء أو الخلود ومن أجل تحقيق هذه الرغبة يسعى الإنسان بكل الوسائط و الوسائل لتحقيقها"[49].

تتنوع الرغبة فهي إما رغبة عن شيء أو رغبة في شيء، رغبة إيجابية ورغبة سلبية... كما تتطلب كل رغبة توافر شرطين راغب ومرغوب فيه وبينهما شرط آخر فرضته طبيعة الإنسان وملابسات ظروف حياته وتطوره التاريخي وهذا الشرط هو الوساطة: الوسيط"[50].

أراد يوسف عليه السلام بالرؤيا أن يحقق رغبة مزدوجة: إلهية وأبوية فضلا عن رغبته الذاتية الخاصة"[51]، يحتل يوسف دور الوسيط الذي سيوكل إليه أمر تحقيق الرغبة المثلثة، بمعنى أن يوسف وسيط الرغبة لأنه هو الذي رأى الرؤيا، كذلك الأب وسيط بالنسبة لابنه، فيوسف في نظر إخوته وسيط سلبي، والأب وسيط سلبي بالنسبة للإخوة.

تتصارع الرغبة الايجابية مع الرغبة السلبية في هذا المثلث "يوسف، الإخوة، يعقوب" وهذه الوساطة المتبادلة والمتداخلة تساهم في بناء الحدث الذي تحركه الشخصيات" يوسف ويعقوب والإخوة" في الحلقة الأولى من القصة" ((**إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ.**)) (يوسف / 08).

يمثل تآمر الإخوة على يوسف صراع الرغبة السلبية مع الرغبة الإيجابية فجاء في سياق مجموعة من الاستبدالات":

استبدال رغبة سلبية برغبة ايجابية، ورغبة الإخوة برغبة " يوسف ويعقوب.

استبدال رؤيا يوسف بيوسف نفسه الضحية.

استبدال الكلام بالقتل ثم بالرمي في الجب ثم حكاية الذئب.

استبدال يوسف بالمال"[52].

تجسد هذه المؤامرة الوساطة السلبية بين" الإخوة والشيطان ويوسف "، فالشيطان وسيط بين الإخوة ويوسف: وسيط رغبة الإخوة وفي نفس الوقت الإخوة وسيط الرغبة الشيطانية.

ينظر نقوري إلى هذه الفكرة بالمنظور الأنثروبولوجي ويحلل كيفية تأثير الشيطان في الإنسان، وما يسميه القرين، ورغم أن القرين اعتبر يوسف وإخوته ضحاياه إلا أن القصة جاءت عكس ما توهم القرين فكانت النهاية سعيدة.

وتختم الحلقة الأولى بما قاله يعقوب عليه السلام ليوسف بعد الرؤية " **قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (يوسف/05).

وفي المرحلة الثانية وفي بدايتها تظهر الرغبة الإيجابية وهي رغبة العزيز في الانتفاع يوسف واتخاذه ولدا ثم رغبة زوليخا في الاستمتاع به، ولكن هذه الوساطة مازجتها وساطة سلبية ، حيث عاد القرين كوسيط بين يوسف وزوليخا فقام صراع بن الرغبة النبوية والرغبة الشيطانية التي تريد الإيقاع بالنبي يوسف في فاحشة الزنا، وانتصرت الوساطة الايجابية على السلبية ولكن يوسف دخل السجن.

في هذه المرحلة يقدم **نقوري** بعدا أنثروبولوجيا للقرين في علاقته بالإنسان، ويصل إلى فكرة مفادها أن القرين إذا لم يستطع التغلب على الإنسان جاءه من جهة المرأة وهو ما حدث ليوسف عليه السلام بعدما "**راودته التي هو في بيتها عن نفسه**"، إن كيد المرأة وبخاصة الجاهلة والكافرة، جزء من كيد الشيطان لأن الله تعالى قال: **وكان كيد الشيطان ضعيفا**" وقال:"**إن كيدكن عظيم**" ولهذا، كثيرا ما تكون المرأة محور الوساطة السلبية"[53].

وتنتصر الوساطة الإيجابية من جديد بعد دخول يوسف السجن وذلك بالحكم والعلم، فبهما أول يوسف رؤيا السجينين، وهما وسيط الرغبة في الدعوة الى التوحيد لأن يوسف جعل من نفسه واسطة خير وفلاح، ومن الوقائع التي تثبت انتصار الوساطة الايجابية هي اعتراف نسوة المدينة وفي طليعتهن امرأة العزيز ببراءة يوسف ((**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**)) (يوسف/ 51).

وتظهر الرغبة الإيجابية عند الملك ليحتل يوسف دور الوسيط الجديد الذي سيضطلع به الملك في أرض مصر، يقول الملك: ((**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**)) (يوسف / 54)، وكذلك يدل قول يوسف الذي ثنى به

على كلام الملك، على رغبته الأكيدة في ممارسة الوساطة الإيجابية: ((**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.**)) (يوسف /55).

ويمكن أن نلخص وساطة يوسف عبر ثلاث مراحل على التوالي وبحكم ثلاث إرادات هي: إرادة الله تعالى أولا وإرادة الملك وهي مجرد تنفيذ للإرادة الأولى وإرادة يوسف، وهي تظهر من خلال مثلث الرغبة: الذات الإلهية وهي الذات الراغبة والملك هو وسيط الرغبة الإلهية ويوسف عليه السلام هو موضوع الرغبة"[54].

وفي الحلقة الأخيرة من القصة يلتقي يوسف بإخوته بعدما فرق بينهم الشيطان عبر الرغبة السلبية ((**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**)).(يوسف /100)، وما يميز هذه الوساطة الجديدة هو الانقلاب الحاصل في المعادلة، أي في العلاقة الرابطة بين الذات الراغبة وبين الوسيط من جهة، وبين موضوع الرغبة من جهة ثانية، حيث يمثل الإخوة الذات الراغبة، ويتبوأ يوسف قمة الوسيط، وموضوع الرغبة هو الحصول على الميراث"[55].

يظهر يوسف كوسيط بشخصية العزيز لتكون الوساطة مقنعة ثم تنكشف بلقاء أخيه بنيامين بعد حادث السرقة المفتعل ((**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**))(يوسف /69)، لتظهر الوساطة المكشوفة بعدما وضعت حدا للوساطة السلبية فيوسف لم يعد الضحية أو المعتدى عليه وإنما هو العزيز الذي يملك خزائن الأرض ((**قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.**))(يوسف/90).

نلاحظ في هذه الدراسة" الوساطة العامة" تبادل الأدوار وتحول الوسيط إلى ذات راغبة والذات الراغبة إلى وسيط، وتحول كل من الذات والوسيط إلى موضوع للرغبة... و كل أولئك

حسب مواقف متباينة وأهداف متعارضة تبدو أحيانا ظاهرة وأخرى خفية في نطاق جدلية الصراع القديم المستحكم بين يوسف وإخوته من جانب وبين الإخوة وأبيهم من جانب آخر"[56].

ترتكز دراسة نقوري الأنثروبولوجية على مستوى الذات والإرادة والقدرة والرغبة وهي عناصر موجودة في الجانب الداخلي للإنسان ثم يحاول أن يربطها بجانب تعاملات الإنسان مع أخيه، وذلك بدخول الشيطان بينهما ((**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** (المائدة /91).

فيؤثر الشيطان على الإنسان عن طريق الحسد والغيرة ثم عن طريق المرأة" الفاحشة" ثم الغرور بالملك والسلطة، لكن النبوة شيء يتعالى عن كل هذه الإغراءات الشيطانية فالأنبياء معصومون، وبهذا يتغلب يوسف النبي على الشيطان بفضل الله سبحانه وتعالى .

3. البعد الأنثروبولوجي لقصة يوسف عليه السلام:

تنقل قصة يوسف تجربة إنسانية تتمثل في أصعب الامتحانات التي يتلقاها الإنسان في حياته وهل أصعب من فتنة الأخوة ومن فتنة النساء؟ وهل أصعب من فتنة السلطة والملك؟.

فالنماذج التي يقدمها تفوق بكثير نماذج الأدب اليوناني وغيره من الآداب الإنسانية وتقدم رؤية عميقة للحياة والكون هي الرؤية الوسيطية الإيجابية التي تختلف عن الرؤية العاجزة الحائرة التي يمثلها أبطال الملاحم والأساطير في الآداب اليونانية والرومانية ..

ولم يكتف نقوري في دراسته للشخصيات من الجانب الداخلي، بل انتقل إلى الأنثروبولوجية الثقافية وذلك بالتركيز على القميص والذئب والدراهم، فحاول أن يعطيها أبعادا أنثروبولوجية تتعلق بحياة الإنسان الثقافية والاجتماعية وتتعلق ببيئة يوسف وإخوته، كما نفهم من خلال ذكر الدراهم أن المجتمع كان في درجة من التحضر والرقي لاستعماله المبادلات التجارية والمعاملات النقدية.

يقول نقوري" وقصة القميص وحدها تقدم نموذجا آخر للوساطة الايجابية على مستوى آخر من مستويات التحليل الأنثروبولوجي وهو مستوى الأشياء والموضوعات الخارجية، على اعتبار أن الثقافة في مفهوم اتجاه من اتجاهات الأنثروبولوجيا الثقافية تتكون من ثلاثة عناصر متمايزة ومتفاعلة: 1 – الكائنات العضوية 2 – الأفكار 3 – الأشياء

فقيل إن القميص الذي وقى سيدنا إبراهيم من نار المشركين هو نفس القميص الذي نجى يوسف من الاصطدام بصخرة الجب"[57].

وقد عد بعض المفسرين سلامة القميص من التمزيق إحدى آيات يوسف الثلاث، إلى جانب عود يعقوب بصيرا وقد القميص من دبر وهو الدليل الذي أثبت للمرة الأولى براءة يوسف"[58] .

يستقطب حياة الإنسان عالمان كبيران: عالم داخلي وعالم خارجي، وبين تلك الثنائيات الكثيرة المتشابكة علاقة جدلية مستحكمة تظهر ضوابطها وتجلياتها في أوجه النشاط الإنساني الأربعة " العلم والعمل والدين والفن".

خاتمة:

تعد الوساطة نظرية إنسانية لأن الإنسان هو جوهرها وأساسها وعليه مدارها، وكل ما يهم الانسان يندرج ضمن علم الانثروبولوجيا، فالوساطة تعتبر احدى نظريات هذا العلم لأنها تجمع بين ثلاث عناصر وهي الذات والموضوع والوسيط .

ترتبط هذه العناصر بعضها ببعض من خلال توظيف محور الرغبة والإرادة وهما اساسا كل وساطة، إذ تحمل الذات الفاعلة رغبة وإرادة في تحقيق الموضوع ويلعب الوسيط دورا في ربط العلاقة بين الذات والموضوع .

إن أهمية نظرية الوساطة تكمن في الكشف عن شبكة العلاقات بين مختلف الشخصيات في الحياة أو في القصص إذ يمكن عن طريق النظرية معرفة طبيعة الانسان ونوعية الوساطة التي يقوم بها من اجل بلوغ الذات للموضوع .

أعجزت قصة يوسف عليه السلام المفسرين والروائيين لما تحمله من سرد محكم و ترابط بين مختلف الأحداث، وقد استطاع ادريس النقوري بتحليله الانثروبولوجي أن يصور العلاقات الخفية بين مختلف شخصيات القصة التي تعرض نموذجا رائعا ومعجزا يبين مراحل ظهور الرغبة" أو الإرادة" الإلهية وأطوار تنفيذها في حياة يوسف عليه السلام.

ولم يكتف نقوري في دراسته للشخصيات من الجانب الداخلي، بل انتقل إلى الأنثروبولوجية الثقافية وذلك بالتركيز على القميص والذئب والدراهم، فحاول أن يعطيها أبعادا أنثروبولوجية تتعلق بحياة الإنسان الثقافية والاجتماعية وتتعلق ببيئة يوسف وإخوته، كما نفهم من

خلال ذكر الدراهم أن المجتمع كان في درجة من التحضر لاستعماله المبادلات التجارية والمعاملات النقدية.

يستدعي البحث في طبيعة وتاريخ الإنسان من كل النواحي إلى تكاتف الجهود وإلى توظيف جميع النظريات والمعطيات التي استطاع العقل البشري أن يوجدها، وهذا ما تسعى الانثروبولوجيا إلى تحقيقه.

هوامش:

1- فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، عالم المعرفة (الكويت) العدد 98، 1986، ص15

2 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب (سوريا)، 2004، ص المقدمة.

3 – المرجع نفسه، مقدمة أبو هلال 1974، ص 09 .

4 – المرجع نفسه، مقدمة الجباوي، 1997، ص 09.

5 – فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، ص 15 .

6 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، إسماعيل، ص 460.

7 – فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، ص 21 .

8 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، ص 07.

9 – فهيم حسين : قصة الأنثروبولوجيا، ص 21 .

10 – المرجع نفسه، ص 14 .

11 – أركون محمد: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، تر هاشم صالح، دار الساقي بيروت، ط2 ، 1995، ص 50.

12 – فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، ص 14.

13 – المرجع نفسه، ص تقديم.

14 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، ص 02.

15 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، ص 03/02.

16 – فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، ص 16.

17 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، ف 4 ص 08./ وصفي 1977، ص 30 .

18 – الشماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان، ص 07 ./ حمدان 1989، ص 103.

19 – فهيم حسين: قصة الأنثروبولوجيا، ص 14.

20 – يتيم عبد الله عبد الرحمن: قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، المنتخب إصدارات بيت القرآن البحرين، 2001، ص 116.

21 – المرجع نفسه، ص 118.

22 – المرجع نفسه، ص 42.

23 – المرجع نفسه، ص 63.

24 – المرجع نفسه، ص 55.

25 – يتيم عبد الله عبد الرحمن: قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، ص 45.

26 – المرجع نفسه، ص 58.

27 – المرجع نفسه، ص 127.

28 – المرجع نفسه، ص 117.

29 – المرجع نفسه، ص 49.

30 – يتيم عبد الله عبد الرحمن: قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر، ص 112.

31 – المرجع نفسه، ص 117 /118.

32 – أركون محمد: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص 53.

33 – المرجع نفسه، ص 53.

34 – أركون محمد: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص 41.

35 – المرجع نفسه، ص 45.

36 – إدريس نقوري: نظرية الوساطة في الفكر والفن، منشورات جامعة شعيب الدكالي– كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (الرباط)، 1992، ص 168.

37 – توفيق الحكيم: التعادلية، دار مصر للطباعة (مصر) 1988، ص 163.

38 – المرجع نفسه، ص 16.

39 – محمود زكي نجيب: تجديد الفكر العربي، دار الشروق القاهرة، ط9، 1993.

40 – المصدر نفسه، ص 55.

41 – نقوري إدريس: نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 60. بتصرف.

42 – المصدر نفسه، ص 61.

43 – المصدر نفسه، ص 60.

44 – المصدر نفسه، ص94.

45 – نقوري إدريس: نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص139.

46 – المصدر نفسه، ص 154.

47 - المصدر نفسه، ص 155.
48 - المصدر نفسه، ص 147.
49 - نقوري إدريس: نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 146.
50 – المصدر نفسه، ص 146.
51 – المصدر نفسه، ص 156.
52 - المصدر نفسه، ص 159.
53 – نقوري إدريس: نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 171.
54 – المصدر نفسه، ص 172.
55 – المصدر نفسه، ص 173.
56 – المصدر نفسه، ص 175.
57 – المصدر نفسه، ص 164.
58 – الألوسي محمود أبو الفضل: روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 12، ص 201.